

الجزارون نابليون والحسالة الشرقية

د. محمد نور الدين

وضع انتصار الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) الملكيات الأوروبية المطلقة وجهاً لوجه مع الأفكار الثورية الجمهورية. وتحلى ذلك في ازدياد حدة الصراع، لا سيما بين فرنسا وبريطانيا، على تسيد الأسواق العالمية. ولما كانت الحكومة الفرنسية تدرك استحالة مهاجمة إنكلترا عبر المانش لعدم كفاية قواها الحربية، خاصة البحرية، فقد قررت إضعاف مواقع بريطانيا عن طريق توجيه ضربة لمراكزها التجارية الرئيسية بقطع خط مواصلاتها إلى الهند، في مصر. فيكتب وزير خارجية فرنسا بتاريخ (١٣ شباط/فبراير ١٧٩٨م) أن احتلال مصر سيقضي على قوى إنكلترا في الهند، مصدر عظمتها. قبل ذلك في (١٧ حزيران/يونيو ١٧٩٥م) وفي معرض شكواه من معاملة الحكام المماليك السيئة للتجار الفرنسيين في مصر، يكتب قنصل فرنسا في مصر ماغالون انه «إذا أرادت الجمهورية حماية التجارة الفرنسية، فيجب احتلال كل مصر. وحين نصبح سادة البحر الأحمر سيكون باستطاعتنا فرض إرادتنا على البريطانيين وطردهم من الهند».

عشية الحملة على مصر يؤكد نابليون بونابرت أهدافه في كلمة ألقاها أمام جنوده: «أنتم على أبواب حملة سوف تترك آثارها العميقة على التجارة والحضارة العالمية. سوف تذللون إنكلترا بحشرها في أضعف مواقعها، في انتظار اليوم الذي ستصوبون إليها طلقة الموت».

إلى هذه الأهداف الاقتصادية - السياسية فإنه لا يمكن أن نلغي الطموحات الشخصية لبونابرت من وراء الحملة، والمتحمس لتحقيق انتصارات خارج فرنسا تسمح له بالعودة قوياً إلى فرنسا قائداً للأمة هذه المرة. كما لا يمكن تبرير دوافع الحملة على مصر بتناقض المصالح الانكليزية - الفرنسية فقط. فالغزوة الفرنسية

شكلت تطوراً هاماً لما يسمى بالمسألة الشرقية. فرغم أن هذا المصطلح لم يظهر للمرة الأولى رسمياً إلا في مؤتمر فيرنا عام (١٨٢٣ م) « ليشمل المشكلات الدولية التي كان ينطوي عليها انحلال الإمبراطورية التركية الوشيك »، إلا أن البدايات الحقيقية لهذه المسألة تعود إلى ظهور الأتراك أنفسهم على مسرح السياسة العالمية كقوة لها وزنها ومؤثرة على تطور الأحداث إلا أن المسألة الشرقية لم تأخذ طابعاً جدياً وخطيراً في انعكاساتها على التاريخ العالمي والشرق أوسطي إلا بعد الطفرة الصناعية الأوروبية والخطر الذي مثله وصول العثمانيين إلى أسوار فيينا عام (١٦٨٣ م).

من جهة أخرى فإن الاضطرابات المحلية في الشرق كانت تعرض « الامتيازات » التي أعطتها الدولة العثمانية للأوروبيين إلى الخطر من آن لآخر. فكان لا بد من « تطوير » وسائل المحافظة على هذه الامتيازات وفي نفس الوقت العمل الدؤوب لتفسيخ الإمبراطورية العثمانية الموحدة. وكانت الأقليات الدينية في الإمبراطورية باباً هاماً في هذه السبل.

من أجل هذه الأهداف جميعاً، انطلق نابليون بونابرت صباح التاسع عشر من (أيار/مايو ١٧٩٨ م) من المرفأ البحري الفرنسي طولون باسطول قوامه ٤٠٠ مركب و ٥٥ ألف رجل بأسلحتهم وخيولهم. يوم ٣ تموز/يوليو، كان بونابرت يتوجه إلى سكان مصر ببدء باللغة العربية مهذباً المخاوف ومعلنأ أنه قد أتى لتحريرهم من المماليك أعداء السلطان في محاولة للإيجاء بأن السلطان مؤيد للعملية. وزيادة على ذلك، ولتأيد السكان له، أعلن بونابرت بأنه مسلم متدين، يعبد الله ويحترم نبيه والقرآن وأكد أن الفرنسيين هم مسلمون مخلصون. لكن لم يكن للبيان أية نتائج إيجابية، بل أن السكان قابلوا الفرنسيين بالعداء وحاول المماليك مقاومة الغزاة. إلا أن بونابرت شتتهم في معركة الاهرامات الشهيرة، يوم ٢١ تموز/يوليو. وبعدها بثلاثة أيام كان القائد الفرنسي يدخل القاهرة.

في هذه الأثناء كان الأسطول البريطاني يحول المتوسط باحثاً عن المراكب الفرنسية ويومي ١ و ٢ آب اغسطس كان نلسون يبيد أسطول بونابرت في أبي قير.

انتصار أبي قير قطع بونابرت عن فرنسا والعالم الخارجي فاقدأ بذلك إمكانية تلقي المعونات من وطنه، أو التعويض على خسائره المتعاطمة مع كل يوم يمر من جراء الانتفاضات الداخلية ضده. أمام الوضع الجديد المحرج، قرر بونابرت التحرك باتجاه استغلال التناقضات بين الحكام العثمانيين في المنطقة. فيرسل يوم (٢٢ آب/اغسطس ١٧٩٨ م) إلى احمد باشا الجزائر والي عكا موفده بوفوفازان، عارضأ عليه معاهدة للصدقة والتجارة. غير أن الجزائر، حالما عرف بطبيعة مهمة المبعوث الفرنسي طرده. وفي محاولة لتدارك أخطار عداء الجزائر له، أرسل بونابرت رسائل مماثلة إلى حكام طرابلس ودمشق ومكة دون أية نتيجة في مصلحته. هذه

الرسائل تعكس رغبة بونايرت الخروج من حالة الحصار الموجود فيها عن طريق إيجاد مواقع له خارج مصر تمكنه من تحسين موقعه في مواجهة الإنكليز والعثمانيين .

كانت مصر، رغم عدم اعتراف حكامها الممالك بالسيادة العثمانية، تستمر في اعتبارها واحدة من الولايات العثمانية . أما بونايرت وتاليران فلم يكونا يعتقدان بأن العلاقات الجيدة بين الباب العالي وفرنسا ستأثر بالحملة على مصر . بل كان يُقال للسفير العثماني في باريس بأن مصر ستكون محطة للفرنسيين نحو الهند ليس إلا . وكانت الأوضاع العثمانية الداخلية تمر في مرحلة تمزق، والاضطرابات الإقطاعية تسودها منذ أكثر من نصف قرن . وأية محاولة من قبل السلطنة لغض الطرف عما يجري في مصر سيدفع حتماً بالدول الأوروبية الكبرى، لا سيما إنكلترا وروسيا إلى تكرار « النموذج النابليوني » في أمكنة أخرى من الإمبراطورية . لذا وجد السلطان نفسه، وتحت ضغط إنكلترا وروسيا، مضطراً لقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا وذلك يوم (٢ ايلول/سبتمبر ١٧٩٨ م) . وبعد ذلك بأسبوع واحد يصدر السلطان سليم فرماناً لمواجهة الفرنسيين الذين يريدون تدمير الإسلام وابتادة المؤمنين . هكذا اكتسب بونايرت عدواً كان يأمل ألا يصل في عدائه إلى هذا الحد .

كل شيء كان يوحى بالتشاؤم والمرارة حول بونايرت . الإنكليز في البحر والأتراك في البر وانتفاضات السكان والممالك في الداخل . كان الحصار شاملاً وناجحاً بنسبة ٩٠٪ كما يروي معاصرو تلك الفترة . أما الجزائر فكان يرسل من وقت لآخر الرسائل والنداءات إلى مصر منبهاً السكان ومخبراً من مغبة الخضوع للفرنسيين . الطاعون الذي أصاب العديد من الأقاليم المصرية خلال (كانون أول/ديسمبر ١٧٩٨ م) والذي انتشر بين الجنود الفرنسيين جاء ليزيد سوءاً من حالة هؤلاء .

خارج مصر، كانت عزلة بونايرت تزداد إثر نجاح المفاوضات بين روسيا وإنكلترا وتركيا . يوم (٢٣ كانون أول/ديسمبر ١٧٩٨ م) يتم توقيع اتفاقية للدفاع والهجوم بين تركيا وروسيا . ويوم (٥ كانون ثاني/يناير ١٧٩٩ م) اتفاقية للتعاون بين تركيا وإنكلترا .

حتى عشية الحملة على مصر لم تكن سياسة الدول الأوروبية تجاه « المسألة التركية » واضحة تماماً . فإنكلترا كانت ترغب بالحفاظ على الإمبراطورية العثمانية موحدة، لأن أي تقسيم لها، كان يعني مجيء الروس إلى استانبول . لهذا كانت وحدة الإمبراطورية، في نظر إنكلترا، شرطاً ضرورياً للسلام العالمي . وهذه الوحدة لم تكن تعني سوى الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية في الإمبراطورية . وهذا يبدو واضحاً من البند العاشر من معاهدة تركيا - بريطانيا والذي يدعو إلى تأمين كل الوسائل الضرورية لتدمير التجارة الفرنسية في الليقانة والبحر المتوسط . هذا البند يتقدم الفقرة المتعلقة بضرورة تأمين مئة ألف جندي تركي وزيادتهم عند الحاجة لمحاربة بونايرت . إن أي تقسيم للإمبراطورية لن يضمن لإنكلترا، في الظروف السائدة آنذاك، موطئ قدم لها في

الشرق، حيث كانت روسيا صاحبة الحظ الأوفر في التسيد والسيطرة لقربها ولقوتها . لذا ضغطت انكلترا لقطع الطريق على أي تدخل روسي على الفرار النابليوني .

روسيا، شكّلت كابوساً دائماً على الحدود الشمالية للإمبراطورية، وخلال القرن الثامن عشر ولا سيما نصفه الثاني، خطت روسيا خطوات هائلة لتثبيت نفوذها داخل الإمبراطورية، عن طريق الحروب المباشرة أو تحريض الحركات الانفصالية الداخلية في السلطنة . وهذا نجد تعبيراً له في كلمات إنغلز « أبنا رفع الباشوات الأتراك لواء العصيان ضد السلطة المركزية فلا يخامرك شك بعدم كفاية الدسائس الروسية أو المال الروسي » .

بعد الثورة الفرنسية، وجدت روسيا نفسها أمام عدو هو الأخطر على النظم المحافظة . واحتلال روسيا لتركيا - حسب إنغلز - سيجعل من الأولى الأقوى في أوروبا . ولم تتوان السياسة القيصريّة عن العمل لتحقيق هذا الحلم . وكان أن جاءت الحملة الفرنسية على مصر وسوريا لتضع الأهداف الروسية أمام خطر التضعف . لذا عملت روسيا بكل قوتها لإبعاد الخطر الفرنسي عن حدودها الجنوبية بعد أن وضعها انتصار الثورة البرجوازية في فرنسا أمام الخطر الآتي من الغرب . إن فرنسا الآن هي العدو رقم واحد لروسيا على الصعيد الأوروبي . فمن جهة يوجد المعسكر الروسي والملكية المطلقة ومن جهة أخرى المعسكر الثوري والديمقراطية .

إلى حين وصول الوزير الأعظم يوسف باشا إلى سورية في طريقه إلى مصر، فإن الرجل الوحيد القادر على إظهار مقاومة ما لبونايرت، هو أحد باشا الجزائر . في نهاية عام (١٧٩٨ م) عبّنه الباب العالي من جديد والياً على دمشق وطرابلس وقائداً عاماً للجنود الذين سيهاجون مصر . بدأ الجزائر استعداداته وجمع الجنود وإليه انضم القائد المملوكي الهارب من مصر إبراهيم بك مع جنوده . ثم أصدر الجزائر لكل حكام سوريا الأمر التالي : « بعد السلام، نعلمكم أن الباب العالي قد سمى أحمد الجزائر باشا على القاهرة المحروسة فتقلد قيادة الجيوش المسلمة وأسند إليه باشليق دمشق والمسير بالحجاج إلى الكعبة المكرمة وأعطي إبلات طرابلس وغزة والرامة ويافا وعكاء، فقد عبأنا جيوشاً لا عداد لها من المشاة والفرسان الأمناء وأذخرنا الذخائر والأسلحة في يافا وغزة والعريش وعكاء . لذلك نريد أن ينضم بعضكم إلى بعض ليتألف منكم حزمة واحدة وبمساعدة الكلي القدرة ستغلبون أعداءكم الذين هم أعداء الله . ونحن قد أمسكنا مراسلاتهم وترجمناها فعلمنا منها أنهم في حالة يُرثى لها » . أيضاً منذ أن علم بقدوم الفرنسيين إلى مصر، بدأ الجزائر بتحصين عكا، وعندما تأكد من احتلالهم لها، وسع إطار استعداداته لتشمل المدن الواقعة تحت سيطرته .

وحين علم بونايرت باستعدادات الجزائر أرسل إليه بتاريخ (١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٧٩٨) محذراً : « لست أريد محاربتك إذا لم تكن عدوي ؛ ولكن الوقت قد حان لتفسير تصرفاتك . فإذا مضيت في حمايتك لإبراهيم بك على حدود مصر، فإني سأعدّ هذا عملاً من أعمال الحرب، وسأزحف على عكا » . إلا أن التحذير لم

يشن الجزار عن مواصلة استعداداته .

احتلال سورية من قبل بونابرت يحرم الأسطول البريطاني من قواعد تموينه في شرق المتوسط . أية غلبة لبونابرت في سورية سوف تعطيه مركزاً قوياً ضرورياً لمتابعة مشاريعه أو على الأقل مركزاً أفضل للتفاوض مع الباب العالي وإنكلترا .

آراء عديدة كانت تنظر إلى أن هدف بونابرت من غزو سورية هو الوصول إلى استانبول والبلقان ثم القضاء على النمسا والعودة إلى فرنسا عن طريق أوروبا . وهذا ما يذكره بونابرت نفسه فيما بعد في الأول من (كانون أول ديسمبر ١٨٠٥ م) . إلا أن كل هذا يعتبر ضرباً من الوهم . فالقوى المتوافرة تحت إمرة بونابرت كانت غير كافية على الإطلاق لتحقيق مثل هذا المشروع ، إلا إذا أخذنا في الاحتمال انضمام قوى أخرى معادية للسلطنة في سوريا وغيرها لقوات نابليون . وهذا ما كان يأمل به فعلاً بونابرت .

عشية الغزو الفرنسي لها ، كانت سورية ممزقة بسبب الانقسامات الدينية والاجتماعية ، وبسبب التناحرات الإقطاعية بين حكامها . الغزو الفرنسي والدعوة للجهاد المقدس ضد « الكفار » جاءت لتعمق الانقسامات وتزيد من حدتها . فهاجم المسلمون النصارى في دمشق وغيرها من المناطق . وأمر الجزار بمغادرة النصارى كل البلاد حيث لم يبقَ منهم - في بيروت مثلاً - أي رجل . وازدادت الحالة سوءاً بعد منع الجزار للقوارب من ارتياد الشاطئ فتوقف وصول السلع المصرية ولا سيما الرز إلى سورية . كما أن احتياجات الجنود الأتراك الذين كانوا يندفقون يومياً إلى سورية كان يضعف من الوضع الاقتصادي للسكان ، ولم يُعرَ السكان - لسوء الحالة وضعف السلطنة - اهتماماً للفرمانات السلطانية الداعية لمقاومة الفرنسيين . والجزار نفسه كان يحسب للفرنسيين ألف حساب ، الأمر الذي دعاه ، حين تعيينه من جديد والياً على دمشق ، إلى أن يرسل نائباً عنه إلى المدينة . كما أنه لم يذهب بنفسه لقيادة قافلة الحج وانشغل بالاستعداد لمواجهة الفرنسيين .

في مطلع (شباط/فبراير ١٧٩٩م) يغادر نابليون القاهرة متوجهاً إلى سورية بجيش قوامه : ٩٩٣٢ مشاة ، ٨٠٠ فارس ، ٣٧٠ مهندساً ، ١٣٨٥ مدفعياً ، ٤٠٠ دليل ، ٨٨ هجانة ، والمجموع ١٢٩٧٥ رجلاً ، إضافة إلى الأطباء والمترجمين والعمال وغيرهم . وفي التاسع عشر من شباط تسقط العريش نهائياً بعد حصار دام عدة أيام لكن بعد معركة طويلة ودموية سقط خلالها للفرنسيين ما لا يقل عن ٤٠٠ رجل وهو رقم كبير وما زالوا في بداية الحملة . وقد لعب وعد بونابرت باطلاق سراح المحاصرين بأسلحتهم إذا استسلموا والذي لم يفِ به بعد ذلك دوراً في الاستيلاء على العريش . ثم تسقط غزة دون مقاومة وفي الأول من آذار/مارس يبدأ حصار يافا التي كانت قد استعدت للمواجهة بسورها الكبير وابراجها وجنودها الأشداء من الألبان والأتراك وبمناويس الشوارع التي أقامها السكان . بعد حصار دام حتى السابع من آذار لم تستسلم المدينة إلا بعد أن وعد بونابرت

بالحفاظ على حياة الـ ٣٠٠٠ توكي الذين كانوا ما زالوا في قلعة المدينة . إلا أنه نكث بوعده، وجمع اعداءه، بعد استسلامهم، جماعات جماعات وقتلهم بالرصاص ومن بقي فيه رمق حياة عوجل بطعنات السكاكين المميتة . وقد برز الجنرال الفرنسي الذي دخل التاريخ من « أوسع » أبوابه سبب هذه المذبحة، بعدم وجود عدد كافٍ من الجنود لحماية الأسرى، والخوف من انضمام هؤلاء للجزار في عكا في حال إطلاق سراحهم كما فعل البعض من الذين اطلق سراحهم من قبل في العريش . بعد المذبحة جاء دور السكان الذين تعرّضوا لفنون القهر والتعذيب المختلفة « كنت تسمع في كل مكان صراخ إبنة تغتصب وعبثاً تستغيث بأمرها التي تهان أو بأبيها الذي يذبح، ولم يحترم ملجأ » وبعد كل هذا نهب الفرنسيون المدينة وتركوها فارغة كجوف حمار .

هذه المذابح البونابرتية، التي سقط ضحيتها ما لا يقل عن ألفي شخص، كانت تهدف بشكل أساسي بث الذعر في قلب الجزار وجنوده . ولما رأى سكان البلاد ما جرى، هرب السواحليون منهم، بما معهم من مال، إلى الداخل والجبال .

بعد أن استسلمت حيفا وصل بونابرت يوم ١٨ آذار/مارس إلى عكا . وكان ما زال منتشياً من كأس « إنجازاته » في يافا، أكد للفرنسيين بأن عكا ستسقط خلال ٢٤ ساعة . وتبعاً لحسابات الإمبراطور اللاحق فإن أعداء الجزار من الفئات المحلية يجب أن تنضم إليه حال وصوله إلى عكا .

النصارى في فلسطين الذين احتفلوا به، ونصارى جبل لبنان الذين دخل الفرخ إلى قلوبهم لمقدمه، ورغم أن أهالي المتن قد حملوا إليه البضائع والنبذ وباعوها إليه بأسعار عالية وعملوا عنده أدلاءً، إلا أن خوفهم جيعاً من الجزار منعهم من إبداء التأييد الكامل والواضح لبونابرت .

المتاولة في جبل عامل ليس عندهم ما يخسرونه ورأوا في قدوم الفرنسيين فرصة ذهبية للتخلص من الجزار أحد باشا . فنصّب بونابرت زعماءهم على جبل عامل حيث حمل سكانه الخطب والدجاج والبيض وأشياء أخرى للفرنسيين . إليهم انضم صالح، ابن ضاهر العمر، الذي عيّنه نابليون حاكماً على صنفد .

القوة الأساسية التي كان يمكن أن تؤثر على تطور الأحداث هي دروز جبل لبنان حيث كان بونابرت يأمل بانضمام ما مجموعه ٤٠ ألف مقاتل درزي إلى جانبه ليواصل مخططاته إلى استانبول والهند . إلا أن الشيوخ الدروز الذين خافوا كثيراً وأرادوا الهرب إلى حلب وحوارن عقدوا اجتماعاً في قرية عبيه وقرروا التكتاف والتحالف مع الأمير بشير ضد الفرنسيين . أحد عوامل اتخاذ هذا القرار الخوف، في حال انتصار بونابرت، من انتقال مقاليد الإمارة اللبنانية إلى أيدي النصارى . أما الأمير بشير الذي كان في داخله يتمنى انتصار الفرنسيين للتخلص من الجزار، كان ينفذ في النهاية ما يأمره به الباب العالي .

وهكذا فقد بونابرت أحد أهم العناصر لتنفيذ مشاريعه . وقد زاد من ضعف موقعه وقوع بعض المدافع الفرنسية الثقيلة التي كانت مرسلة إلى بونابرت عن طريق البحر بأيدي الإنكليز . وهذه المدافع كانت ضرورية جداً لحصار القلاع الكبيرة مثل عكا .

عكا كانت تتمتع بأسوار عريضة ومتينة مع برج كبير يتناثر عليها ٢٥٠ مدفعاً من بينها المدافع المأسورة والتي قال عنها سيدني سميث أميرال البحر الإنكليزي « لو لم تكن هذه المدافع لكان الدفاع عن عكا مستحيلاً » . من ناحية ثانية كان بونابرت يعتمد في معلوماته عن عكا على ما كتبه قبل ما يزيد على عشر سنوات الرحالة الفرنسي قولناي عندما كانت المدينة غير محصنة على ما هي عليه الآن . وقد حاول نابليون استطلاع طبيعة التحصينات الجديدة إلا أن أحداً من عيونهم لم ينبجح في الوصول إلى المدينة . إضافة إلى سميث الذي وصل عكا قبل يومين فقط من وصول بونابرت إليها ، كان يعمل إلى جانب الجزار الضابط الملكي الفرنسي فيليبي زميل بونابرت في مدرسة كورسيكا والعدو للدود للجمهورية . وقد بنى فيليبي سوراً ثانياً بموازاة السور الأول ، أما عدد جنود الجزار فتراوح بين ٥ آلاف و ١٢ ألفاً .

في التاسع من آذار وبعد سقوط يافا ، كان بونابرت قد حاول . للمرة الأخيرة ، التقرب من الجزار بأن عرض عليه الانضمام إليه لمحاربة المماليك والإنكليز . إلا أن الجزار أجابه « أنت حرٌّ في أن تواصل سيرك نحو عكا . أما أنا فسوف انتظرُك فيها وسأموت تحت أنقاضها قبل أن تنجح بدخولها » .

حتى قبل وصول سيدني سميث كان الجزار قد قرّر المقاومة . وقد أدرك بونابرت صعوبة المهمة التي جاء من أجلها ، وبأن يحارب رجالاً تعود على الإرهاب والإخضاع وعرك الصعوبات ومارس سفك الدماء وكل فنون البربرية ، رجالاً أبي أن يشاركه أحد في السلطة والمجد .

خائفاً من تدهور معنويات جنوده ، بدأ بونابرت الحصار بكلمة إلى جنوده جاء فيها : « هذه المدينة هي مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم على امتلاكها لان بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية عاصمة قياصرة الرومان وملك شرقي وشمال أوروبا فاعلموا ذلك وأخلصوا نياتكم » .

شنّ الفرنسيون على عكا ، التي كانوا يطلقون عليها « البيت الحقيق » ، الهجمة تلو الأخرى وكانت كلها تبوء بالفشل . وكاد صبر بونابرت يتفد لولا بعض الانتصارات التي حققها ولكن .. خارج منطقة عمليات عكا . في ١٦ نيسان - إبريل مثلاً يحز الفرنسيون انتصاراً غير متوقع على أعداد كثيرة من القوات التركية قرب جبل طابور . وقبلها كانوا قد انتصروا على الأتراك في معركة قرب قانا الجليل . إلا أن هذه الانتصارات لم تنعكس إيجاباً على موقعة عكا ، حيث كان بونابرت ينتظر سقوطها بحدود الخامس أو السادس من أيار - مايو ، « وبعدها سيف أغادرها عائداً إلى القاهرة » . في ٢٤ نيسان - إبريل كاد سير المعركة أن يتحول لصالح الفرنسيين عندما

نجحوا في دخول المدينة والاستيلاء على « البرج الملعون » ووصلوا إلى الجامع وسرقوا طاسات السبيل النحاسية . إلا أن النيران القوية وصمود المدافعين أجبر الفرنسيين على التراجع بعدما فقدوا الكثير من القتلى « ولم يبقَ في عكا حجرٌ على حجر » وجاء الطاعون الذي كان يقضي على الفرنسيين بمعدل ٦٠ شخصاً يومياً ، ليزيد من انعدام الأمل في أي تحوّل لصالحهم . كانت الجثث تبقى في مكانها دون أن يزيلها أحد ، واتجهت معنويات الفرنسيين إلى مزيد من الإنحدار بسبب البيانات التي كان يوزعها عليهم سيدني سميث في الأيام الأخيرة للحصار عن جدوى وجودهم وموتهم بعيداً عن الوطن الأم .

هكذا وجد نابليون بوناپرت نفسه أمام قرار الانسحاب الحتمي ، بعد فشل الهجوم الأخير الذي قاده كبير شخصياً ، ولم يكتفِ الجزار برفض وقف النار وسحب جثث القتلى الذي اقترحه نابليون بل شن هجمات مضادة ضد الفرنسيين . في العشرين من أيار بدأ انسحاب القائد الذي سيدوّخ أوروبا ، وفي ١٤ حزيران كان يدخل القاهرة بعدما سبقته الإشاعات عن مقتله . بعد عودته ادعى بوناپرت الانتصار وأنه خرب عكا من أساسها . وذلك في محاولة يائسة لاستباق وتطويق أية تحركات معادية له داخل مصر قبل أن يعلموا بحقيقة ما جرى للقائد الفرنسي المهزوم .

كلّفت الحملة على سوريا الفرنسيين كثيراً : ١٢٠٠ قتيل في المعارك ، ١٠٠٠ بسبب الأمراض ، ٢٣٠٠ أصيبوا بجراح خطيرة أو أمراض ، أي حوالي ثلث العدد الذي انطلق في بداية الحملة .

إن أحد أهم الأسباب التي دعت بوناپرت للانسحاب وعودته إلى فرنسا هو الرسالة التي حملها له موفد فرنسي قبل أيام من رفع الحصار ، ويدعوه فيها إلى العودة لفرنسا بعد الهزائم التي تتعرض لها جيوش الجمهورية في إيطاليا والجبهات الأخرى . ولما كان الوضع حوله لا يبشر بأي أمل فقد فضل بوناپرت الانسحاب والعودة إلى فرنسا .

المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الجبرتي يذكر خمسة عشر سبباً لفشل الحصار . هنري لامنس - عشرة اسباب . أما نيقولا الترك فيحصر السبب بنقص المدافع الكبيرة .

لقد تعدّدت أسباب انسحاب الفرنسيين واجتمعت كل العوامل لتنتهي غزوتهم لسورية إلى فشل ذريع والتي يمكن أن نعيدها إلى : مناعة المدينة ؛ وثبات الجزار وحلفائه الإنكليز ، قطع خطوط إمدادات الفرنسيين ، الأمر الذي منعه من تعويض خسائره ؛ خطأ حسابات بوناپرت حول انضمام سكان سورية إليه ؛ الوحدات التركية التي قدمت إلى فلسطين وعملت على تخفيف الحصار عن عكا ؛ الطاعون الذي انتشر في صفوف الفرنسيين ؛ الانتفاضات ضد الفرنسيين في مصر ، وأخيراً رغبة نابليون في العودة إلى فرنسا .

حلة بونابرت على سورية لم تؤدِ إلى النتائج التي توخاها . فإضافة للضربة القاصمة التي تلقتها قواته الحربية فإنه قد « كسب » عدواً جديداً لفرنسا هو الباب العالي . لقد فتحت الحملة الفرنسية الباب ، لأول مرة ، أمام التدخل العسكري المباشر في شؤون الإمبراطورية العثمانية ، مما أدى بدوره إلى دخول المسألة الشرقية في مرحلة « إمبريالية » جنينية مبكرة . ورغم أن الأحداث التي أعقبت الحملة لم تؤدِ إلى تغييرات جذرية على جوهر المسألة إلا أن الحملة شرّعت النواخذ أمام الدول الكبرى للاقتداء بالنموذج البونابرتي ، فتهاجم انكلترا مصر عام ١٨٠٢ ويحتاج محمد علي باشا - بواسطة ابنه ابراهيم باشا - سورية وصولاً إلى قلب الأناضول . كما شجعت الحملة الفرنسية قوى أخرى محلية للانقضاض على السلطنة كما جرى مع هجمات الوهابيين انطلاقاً من شبه الجزيرة العربية .

لقد أنقذ الجزائر ، بانتصاره ، الإمبراطورية العثمانية من أكبر خطر ميمت عرفته على امتداد القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . والذي قال عنه الجبرتي : « لو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره على الفرنسيين وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه » . هذا الانتصار كان منعطفاً في تغيير مخططات بونابرت الإستراتيجية التي كانت بدايتها في مصر ومن ثم دخول أوروبا عبر استانبول وقيينا على رأس جيش كبير من شعوب الشرق بعد اخضاعه . وباعتراف نابليون نفسه فإن عكا كانت حبة الرمل التي تعثرت بها أوهامه وأوقفت حظه ، والتي علّق عليها القائد الفرنسي المهزوم أهمية حاسمة بالنسبة لمستقبل أوروبا والعالم حين قال : « لو سقطت عكا لتغير وجه العالم » .

انتصار الجزائر في عكا أجبر الدول الأوروبية على إعادة النظر في حساباتها المتعلقة بالمسألة الشرقية وذلك في اتجاه البحث عن قوى حليفة محلية ثابتة تؤمن السيطرة على الخط التجاري إلى الهند . هذه القوى التي عول عليها بونابرت الكثير والتي لم يجدها عندما كان يأمن الحاجة إليها والتي وقف الجزائر دونها حائلاً . لقد دخلت السياسة الأوروبية تجاه المسألة الشرقية ، إثر موقعة عكا ، « مرحلة الاستقطاب » للقوى المحلية ولا سيما في مصر وسورية . وقد تركزت سياسة الاستقطاب هذه على الأقليات الدينية والعرقية التي تسكن الإمبراطورية العثمانية . ونجحت الدول الأوروبية في الارتقاء بالشعور « الأقلّي » لدى الأقليات الدينية في سورية الى شعور ب « القومية » ، وعلى أساس هذه السياسة التقسيمية تمكنت الدول الاستعمارية من إنشاء كيانات و « أوطان » على قواعد وأسس دينية . وهدفها من وراء ذلك هو ضمان مصالحها المتعددة في الشرق وما يليه .

بعض المصادر والمراجع

- (١) Ahmed le boucher, Edward Lockroy. Paris, 1888.
- (٢) Histoire de la nation égyptienne, Gabriel Hamotiaux. 7 V. Paris 1931-1940.
- (٣) La Syrie, Précis historiques, Henri Lammens, 2 V. Beyrouth, 1921
- (٤) Bonaparte au Caire, Lans de Boissy. Paris 1799.
- (٥) Bonaparte et l'Islam, Christian Cherfils. Paris, 1912.
- (٦) بوناپرت في مصر، كريستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد اندراوس. القاهرة ١٩٦٢.
- (٧) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبري. ٧ أجزاء، القاهرة ١٩٦٦.
- (٨) الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، زين نور الدين زين، بيروت ١٩٧٧.
- (٩) السياسة الدولية في الشرق العربي من ١٧٨٩ حتى ١٩٥٨، إميل خوري وعادل اسماعيل، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٥٩/١٩٦٠/١٩٦١.
- (١٠) تاريخ حسن آغا العبد. دمشق ١٩٧٩.
- (١١) تاريخ حوادث الشام ولبنان ١٧٨٢ - ١٨٤١، ميخائيل الدمشقي؟ دمشق ١٩٨١.
- (١٢) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق. جزءان. بيروت ١٩٥٤.
- (١٣) تاريخ مدينة زحلة، عيسى اسكندر المعلوف. زحلة ١٩١١.
- (١٤) تاريخ الرهبانية الشورية، حنانيا المنير. (نشر ضمن كتاب تاريخ أحد باشا الجزائر للشهابي).
- (١٥) تاريخ أحد باشا الجزائر، حيدر الشهابي. بيروت ١٩٥٤.
- (١٦) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، حيدر الشهابي. ٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٩.
- (١٧) مشهد العيان في حوادث سوريا ولبنان، ميخائيل مشاقة. مصر ١٩٠٨.
- (١٨) الدر الموصوف في تاريخ الشوف، حنانيا المنير. نُشر على حلقات في مجلة المشرق المجلدات ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.
- (١٩) جبل عامل في قرنين، الشيخ علي سبتي، مجلة العرفان، المجلد الخامس.
- (٢٠) تاريخ نابليون الأول، مخطوطة لنقولا الترك، تحقيق أمل بشور. رسالة ماجستير في جامعة دمشق ١٩٧٧.
- (٢١) مذكرات نيقولا الترك. القاهرة ١٩٥٠.
- (٢٢) المسألة التركية، فريدريك إنغلز، أعمال ماركس وإنغلز، المجلد التاسع. صوفيا ١٩٦١ (باللغة البلغارية).
- (٢٣) واقع المجادلة في تركيا، فريدريك إنغلز، أعمال ماركس وإنغلز، المجلد التاسع، صوفيا ١٩٦١ (باللغة البلغارية).